



إلى جانب ما يستنبطه كتاب «تشریح الهندسة المعمارية» من وشائج بين الفن المعماري والأفكار الفلسفية، يسرد لنا كذلك علاقته الطبيعية بالأحداث التاريخية كالحروب والمحارق والاحتغيات. من ذلك ما ورد عن الطابع الإبداعي لفنان عصر النهضة ميكيلانجيلو الذي شارك في الدفاع عن دوقية فلورنسا وشهد هزيمتها عام ١٥٣٢، الأمر الذي أضفى مسحة بليغة من الكآبة على أعماله العظيمة.

من خلال كتابه هذا، وبلغة سهلة لا يعثرها الفتور الإنشائي، تمكن الناقد والمؤرخ الروسي سيرغي كافتارادزي من استعراض الفن المعماري: تاريخه وبنائه الجمالية وطبيعته الوظيفية. وقد انطلق في تأليفه من قاعدة مفادها أن المنهجية العلمية الصرف في التعاطي مع الفن المعماري ستقلص من عدد القراء مرتين بأقل تقدير. وبالرغم من أنه لم يفلح في تجنب المصطلحات الهندسية بالمثل، إلا أنه نجح في رفد كتابه بلغة يتذوقها القراء الجدد والطارئون على هذا النوع من الفنون. يقول واصفاً طريقته في تأليف الكتاب: «لا المعمار فنا بصريا وحسب، ويجب أن تتجاوز علاقتنا به حدود العين لتصل إلى اليد. علينا لمس. يجب أن نشعر بدفع الحجر الجيري المُسخن بشمس الأدرياتيك. لن نفهم المعمار إن لم نشعر ببرودة الغرانيت في سانت بطرسبورغ وبخشونة الجص الصديفي. ولن نفهمه إن لم نجعله كائنا قريباً منا، يملأ راحة أيدينا ويتحرك فيها. فلنستمع إلى الرنين القادم من أحجار السلالم الكبيرة الفاخرة أو في المداخل السرية الضيقة وسنجد مختلفاً بعضه عن بعض. فلنصنع إليه ونحن نهبط الدرج إلى الحانوت في الأسفل أو ونحن نصعد إلى أبراج المعارك الملتهبة، سنجد اللغة مختلفة».

الكتاب: تشریح الهندسة المعمارية (الكتب السبعة عن المنطق والشكل والمعنى).

المؤلف: سيرغي كافتارادزي.

الناشر: المدرسة العليا للاقتصاد، موسكو ٢٠١٦ .

اللغة: الروسية.

عدد الصفحات: ٤٧٢

***أكاديمية ومستعربة روسية**



من قبيل المصادفة أن يتم استعارة أساليب معمارية من الزمن اليوناني، فهي استعارة تنطوي على قوة الدولة وعظمة رجالها وسعة علومها ورسوخ حكمتها. يقول المؤلف في هذا السياق: «لا شك في أن الستالينية صفحة تراجيدية من تاريخنا، ولكن بفضلها استطعنا أن نتعرف على أدق تفاصيل الفن اليوناني والروماني القديمين من دون حاجة إلى السفر خارج البلاد. نجد نماذجها الرائعة ليس في العاصمة وحدها، وإنما كذلك في المدن والقرى الريفية».

بالإيضاحات والرسومات، أدرج الباحث في كتابه مجموعة من المشاريع المعمارية التي لم ترَ الضوء بشكل نهائي، إذ تم إلغاؤها وهي في الأطوار الأولى من بنائها. ويرأي المؤلف فقد مثلت تصاميمها جرأة تاريخية وثورة عظيمة في فن الهندسة المعمارية. في طليعة تلك المشاريع الطموحة ما كان مزعماً القيام به في برلين النازية، حيث كان من المخطط أن يُشرع في بناء قصر الشعب، وهو مجمع سكني هائل يُجسد فكرة البيوتوبيا الاجتماعية (أو المدينة الفاضلة) بقبة يبلغ قطرها مئتين وخمسين متراً ويتسع لمئة وخمسين ألف مواطن. وفي موسكو الشيوعية تم تفكيك كنيسة المسيح المخلص وسط العاصمة لإقامة قصر السوفييت في مكانها. ومن البيانات الواردة في الكتاب تتضح ضخامة المشروع حيث يصل طوله إلى أربع مائة متر، يتربع فوقه تمثال ضخم للزعيم البلشفي فلاديمير لينين بطول سبعين متراً، يمد يده إلى الأمام مشيراً للشعب على الطريق الذي يجب أن يسير عليه.

حيث تتضافر الجهود وتتهيا الظروف لبلورتها وذلك على امتداد الحضارة البشرية. فظهور نسق معماري ما، شرقياً كان أم غربياً، واستتبابه فوق أرض الحضارة، وامتداده في زمانها، إنما هو ظهور عظيم وثورة روحية ثقافية كبرى.

علاوة على كل ما سبق، يُعتبر مؤلف الكتاب أن فهم المعمار لا يقتصر على التذوق الجمالي وحده، إذ ثمة مزالق خطيرة أمام كل باحث في الهندسة المعمارية، التي يصفها كافتارادزي بالفن الأكثر تأثيراً بين الفنون قاطبة. فالوقوع ضحية لتلاعب الوعي يُعدّ أمراً وارداً لمن يتعاطى مع المعمار ويدخل غمار أفكاره... وأحجاره. إن المعمار الذي وضع هيكل البناء وابتكر هندسته إنما وضع وابتكر ذلك من وحي المخيلة وبإيحاء ربة الفن. وإننا، نحن الذين نستفيد من العمارة وتكيف حياتنا بموجبها إنما نفضل ذلك بالكيفية التي رسمها لنا المعمار، وبالشكل والإيقاع اللذين أرادهما لنا. ليس هذا وحسب، فالمعماري يسيطر على أفكارنا ومشاعرنا. ولبرهنة هذه الاستنتاجات يأتي سيرغي كافتارادزي بأمثلة عن المباني الدينية التي تغمرنا بمشاعر خاصة حينما نقع في مجالها، كما أن مباني الأنظمة الشمولية تمنح انطباعات تختلف عن مباني الأنظمة الديمقراطية.

بوجهة نظر فلسفية، يقوم المؤلف بتفكيك مجموعة من التحف المعمارية (ولا سيما المعابد) ويعيد بناءها بهيئة كون مصغر محمي من القوى العليا. وتحظى القباب بجانب وفير من اهتمامه، فالقبة التي تتوسط المبنى من الداخل وتغطي عنه السماء إنما مهمتها أن تكون في موقع السماء. إنها مسألة إلغاء وتمثل في الوقت نفسه، مسألة حجب وظهور. يكتب المؤلف عن القبة: «إن القبة هي الشكل الأتم كمالاً والأكثر عقلانية (الحجم الأكبر في أقل مساحة) وهي الأكثر ديموقراطية (كل جزءية فيها تبتعد عن المركز بمسافة متساوية). لذلك لا غنى عن القبة في الأبنية التي تمثل الكمال الاجتماعي وفي مقدمتها دور العبادة، وفي البرلمانات ومجالس الدول حيث تصاغ القوانين، وفي دور القضاء حيث تسكن العدالة».

يحتل النمط المعماري المسمى بالنمط الستاليني مكاناً ملحوظاً في الكتاب، وهو أسلوب معماري يعود أصله إلى العمارة اليونانية القديمة، وقد شاع في فترة حكم الزعيم السوفيتي جوزيف ستالين، حيث توزعت شواهد في العديد من المباني السيادية للدولة السوفيتية. وليس





تشریح الهندسة المعمارية (الكتب السبعة عن المنطق والشكل والمعنى) ..

لسيرغي كافتارادزي

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

«روح المكان» - هاتان الكلمتان المجتمعان بشكل سحري هما مفتاح العبور إلى عالم الهندسة المعمارية. العالم المليء بالخطوط والزوايا، بالضوء والظل، الذي تكتنزه الأسرار وتجدل خيوطه المعقدة والمشبكة بالتاريخ والأسطورة. أما كشف أسرار المعمار فيتأتى بالملاحظة لا بالمصارحة. يستشفها الناظر عفوياً بمحض القلب والخاطر. فهب أنك، أيها السائح في المدينة، قد أخذت الدروب إلى جادة المعمار، قادتك تحت أقواسه وأدخلتك أروقتة واجتازت بك حذو جنبات أفانينه، إلا أنك، ومع ذلك، لن تحظى من جولتك بشيء إن لم تصغ إلى المكان وتتملك روحه حواسك. لن ترى شيئاً إن لم تصغ إلى الأصوات المنبعثة من حفيف الأشجار وضوضاء المطر، الأصوات القادمة من شجو الطيور ومن رنين لهجة السكان المحليين. فإن أصبت من كل ذلك، حينها فقط ستبزغ فيك روح المكان، ومن ذرات ضوئه، سترسم أمامك علاماته وسماته الكثيرة، وهكذا، شيئاً فشيئاً، حتى ينكشف لك المعمار بكامل رونقه وفنه، وستمدك زواياه المفاجنة بالمزيد والمزيد من الانطباعات الجديدة التي سترافقك لحين خروجك من المدينة.

الأول ويحكي عن بداية الهندسة في التعبير عن نفسها: القوس، والسقف، والقبة. الكتاب الثاني عن كيفية بناء الأسقف المثينة من الأحجار الصغيرة: الوزن، والمساحة وغيرها من مفاهيم الشكل. الكتاب الثالث عن المشاعر التي يوقظها المعمار: حبكة المعمار. الكتاب الرابع عن المعمار باعتباره مرآة لنظام العالم: المعبد، والمدينة، والمدينة السماوية. الكتاب الخامس عن العمارة الدينية: لغات الهندسة المعمارية الغربية. الكتاب السادس عن حكمة الشرق والمقدرة على فهمها: العصور والأساليب. الكتاب السابع عن تسلسل التيارات الفنية ومنطقها. لعلنا تعود إلى تعقيد المعمار والغموض الذي ما انفك يرتبط به ويوصل الأبواب للوصول إلى فهمه، يفك سيرغي كافتارادزي المعمار ويعيد تعريفه وبسط مفاهيمه بطريقة لا تخلو من نزوع تعليمي وتربوي. فاللوحة الفنية لا تحتاج إلى وسيط أو مُرشد للتمتع بجمالها، وبجمالها الخارجي بأقل تقدير، أما الفن المعماري فدون فهمه الكثير من الجدران والزوايا ومساحات الظل والفضاء. يقول كافتارادزي في هذا السياق: «إن المعمار، مقارنة بالفنون الأخرى، يفتقر إلى التسلية، وليس به العناصر البراقة، كما لا يمنح الثمار اللذيذة كالتي تمنحها اللوحة؛ مع ذلك يبقى المعمار فناً سردياً بامتياز، مكتنز بالقصص والحكايات، حيكته منفتحة على الأفق الواسع ومرتبطة بالكون وانسجامه».

العام. ومن خلال لغة هادئة يقوده إلى فضاء المعمار المسور ويُسمعه اللحن الكامن في أحجاره. حمل المؤلف على عاتقه الجمع بين متناقضين: الأغراض التقنية في الهندسة المعمارية من جهة والنواحي الفنية للعمارة من جهة أخرى. فالعمارة التي عرفها الإنسان واعترف بها تمتلك جوهرين متلازمين، وإن كانا متناقضين بطبيعتهما: الجوهر المادي الذي يؤمن الجانب الوظيفي للبناء والجوهر الجمالي الذي يفضي إلى الشكل الفني. وحين اختار المؤلف كلمة «تشریح» لعنونة كتابه فقد عنى بذلك: تشریح الكتلة الصلدة لجسم البناء، سواء كان البناء ينتمي إلى العمارة الأوروبية أو الإسلامية أو يخص أبنية الشنتو اليابانية، من أجل استخراج المعنى الجمالي من بين أحجاره المترصعة. المعنى الذي يحمل الوزن والشكل معاً. وإذا كانت لغة المعمار شيقة فذلك لأنها تنطوي على مهمة شاقة، وهي تشبه الأعمدة الحجرية التي تربط بين الأقواس لتصنع منظراً فنياً أخذاً، ولكن، وفي نفس الوقت، لتحمل أطنان الحجر التي تشكل البناء. يقول كافتارادزي عن كتابه: «لقد أخذت على عاتقي في هذا العمل، ويقدر ما تبقى لي من مقدرات، فتح عالم المعمار لكل من بوسعه التلذذ بالجمال الذي يكتنزه ولكن لم يقبض له ذلك. أريد أن أسمع القارئ لغة المعمار الجميلة التي لم يسمعها من قبل».

مؤلف كتاب «تشریح الهندسة المعمارية» سيرغي كافتارادزي ناقد فني روسي ومؤرخ معماري، عمل لسنوات طويلة في الأكاديمية الروسية للمعمار وعلوم البناء ووضع منهجه الخاص لتعليم قراءة الهندسة المعمارية وكيفية فهمها كأحد أهم فروع الفن. وعلى المنهج ذاته يبني كافتارادزي أفكاره في هذا الكتاب ويبين عن مقدرة في إيقاد اللذة في نفس القارئ تجاه الجميل والسحري.

لسنا هنا - بطبيعة الحال - إزاء كتاب فريد أو بحث سبق يتناول الفن المعماري: يستنبط فرضياته ويناقش أفكاره ويجادل في نظرياته، فالمعمار باب واسع وقد دلّفه الكثيرون عبر الأزمنة ودبجوا فيه أعمالاً بديعة، بدءاً من الروماني البارز ماركو فيتروفوس الذي كتب عن المعمار واستيعاب الإنسان له، مروراً بمؤلفات عصر النهضة الأوروبية حيث كوكبة العلماء الذين أبدعوا في هذا المجال، يتقدمهم ليوناردو دا فينشي ومن بعده أندريا بالاديو، جورجو فازاري، وانتهاءً بالبحوث النظرية الخصبة في القرن العشرين ومن أعلامه برونو تسفي، إروين بانوفسكي وغيرهم من العلماء والفنانين. ومع ذلك، وخلافاً لمعظم الكتابات النظرية والبحوث العلمية التي أجريت على الفن المعماري، حيث بالكاد نجد بينها كتاباً غير المختصين به أو الخبراء بأدواته أو المنخرطين في دراسته؛ وهؤلاء أشخاص لا تعيقهم لغة البحث العلمية ولا تنغلق على أفهامهم مصطلحات ومقاربات الهندسة المعمارية، بخلاف ذلك يقدم سيرغي كافتارادزي لقارئه شرحاً سهلاً ومحاياً للإدراك

يعرض كافتارادزي المعمار بصورة تتعاقب مع التجربة الإنسانية وتجعله قريباً من الفهم. أما تاريخ المعمار فيعرضه على هيئة سلسلة من الإنجازات الثقافية،

